الفصل الثامن

فصـــل الخطـــاب

ربمـا كان عنوان «فصل الخطاب» غير دقيق، وغير متفق مع مانريد قوله، ففيما يتصل بنواحـى الفن والإبداع – ليس هناك ما يمكن أن نصفه بأنه « الكلمة الأخيرة» أو «الحكم النهائى» أو «فصل الخطاب» فكيف إذا اقترنت العملية الإبداعية وكذلك إذا اقترن الإنتاج الفنى، بأفكار سياسية وأهداف اجتماعية، وآراء فلسفية؟ وتلك جميعها – فى حد ذاتها – مثار جدل متصل ونقاش مستمر، لا تكاد تستقر عند رأى، أو تقف عند نهاية..! وكيف تستقر، والفكر لا يكف عن التطور. والنظرة إلى شئون الحياة ما تفتأ تتجدد، وتتنكر لما سبق أن خلصت إليه؛ وتأخذ بما تراءى لها على نحو مختلف، وفى صورة متباينة..

ثم إننا لسنا بإزاء إبداع قد تجمّد، أو فكر قد تحجّر، فالمبدع – فى تصورنا – هو عدة أشخاص فى شخص واحد، لا يستقر على حال، ولا ينتهى عند وضع، فهو لا يفتأ محلّقا ليأتى بجديد، وليستكشف ما قد يكون مجهولا لديه.. ولدينا من باب أولى..!!

وفى نفس الوقت فهذا الفنان يجد نفسه فى صدام أو صراع مع من هم مشاركون له فى عوالمه، وهو صدام أبدى لم يتوقف – ولن يتوقف – مادام هناك فن، وفكر، وإبداع!

فنحن – على ذلك – أو لذلك – لابد أن نحاول جاهدين – أو لاهثين – أن نتابع هذه التيارات المتدفقة، وأن نساير هذه العوالم المتجددة.. فما نرضى لأنفسنا أن توصف بالتخلف أو الجمود.

فكيف والحال كذلك نقول – أو ندعى – أننا وصلنا إلى «فصل الخطاب» – وأن هذا الفصل فيه ختام القول، وخلاصته... وأننا من بعد سنتوقف عند ختامه؟

نقول – لأننا لابد أن نتوقف عند حدّ، وننهى الحديث عند موقف، فهذا هو ما يتفق مع طبائع الأشياء، ومقتضيات الأمور – لا أكثر ولا أقل – !!

ومع ذلك تبقى ملاحظتان:

أولاهمـا: أننا إن توقفنا اليوم عنـد هذا الحد – فإن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نعود إلى الحديث – إن كان فى العمر بقية – مرة فأخرى..

وثانيهمـا: أنه مع ماقلناه فإن عنونـة هذا الفصل بأنه «فصل الخطاب» كما تبدو غير مقبولة أو معقولة.. فإنها يمكن أن تكون مستساغة على أساس أن توقعنا يقتضى أن نحدّد إلى أين وصل بنا المطاف؟ وعمّ أسفرت عنه هذه الصفحات؟ وما هى النتائج المحددة – إن كان يمكـن تصوّر وجـود نتائج محددة فى عالم يقوم على ضرورة الإبـداع المتجدّد، والفن المتطور، والفكر الذى لا يكفّ عن الطيران والتحليق..!

١ - قصة الخلق والرسل:

عندمـا اكتملت ملامح «أولاد حارتنا» – حينما كانت تنشـر فى «الأهرام» مسلسـلة.. وتصادف أن طالعها البعض ممن فاجأتهم الرواية، ولم يكن لهم سابقة عهد بمثلها، تابعوها ليتعرفـوا على حقيقتها، فكان أن قدّروا أنها ليسـت رواية بقدر ما هى كتاب يتحدث عن قصة الخلق، وتتابع الأديان، وتاريخ البشـرية، ومن هنا كان من الطبيعى وما دام هذا هو فهمهم – وتقديرهم – لهذا العمل، أن تثور لديهم اعتراضات، وتفسيرات قامت على سوء الظن، وأن هذا العمل قد مسّ الأديان، وأساء إلى الرسل...!!

وراحوا يستدلّون على ذلك بما يوجد من أوجه شبه كبيرة سواء فى تتابع الأحداث، أو فيمـا يقـال من دعوات.. وعلى ذلك فقد خلصوا إلى أنه ما كان ينبغى لكاتب – أيا من كان – أن يعرض لهذه الأحداث، وتلك السـير، على النحو الذى تضمنه العمل، أو أن يُظهر الشـخصيات التى لها قداسـتها، وجلالها كسائر البشـر، وما كان يصح أن يفرض عليهم الانحراف فى بعض المواضع – أو يوصفون بأوصاف تحقّر من شـأنهم.. وتهبط بمكانتهم، بينما أنهم لاينبغى التحدث عنهم إلا بكل إجلال، وألا يوضعوا إلا فى المكانة التى ارتضاها لهم المولى العظيم.. والا فكيف يجوز أن يجلس هؤلاء – من ذوى القداسة والتعظيم – على المقاهى، ويشاركوا العباد حياتهم بل ومباذلهم..؟!

والأدهـى من ذلك حديث الكاتب عن «الذات الإلهية» – حديثا يجعل من تلك الذات بشـرا من الناس، يجوز عليها ما يجوز على البشر، وهو أمر فى غاية الخروج والخطورة، فما ينبغى أن نعرض للذات الإلهية إلا بكل تقديس وتعظيم وإجلال.. فهو – سـبحانه – مالـك الملـك، وخالق الكون، ومدبّر الحياة.. وما يحقّ لإنسـان أن يقرب من ذاته إلا بكل تعظيم وألا يتحدث عنه إلا بأسمى آيات التعظيم..!

وعلى ذلك فنحن بإزاء عمل يروى قصة الخلق، ويتتبع حياة الرسـل وتوالى الرسالات، ولكنه يطلق على الرسـل أسماء أخرى، وينسـب إليهم أفعالا تسـىء إلى مكانتهم، ثم هو

لايلتزم بالسير الثابتة عنهم، ولايقف عند ما هو معروف عنهم، من صفات ورسالات، بل ينحرف عن الروايات الثابتة، ويأتى من عنده بأحداث مختلفة، ويجرى على ألسنتهم كلمات ما كان يصح أن تُنسب إليهم، بل إنه لا يروى كل أحداث سيرهم كما وقعت، بل يختصر ويعدِّل، ويغير، ويبدل متجاهلا أنه إنما يتناول قصص أشرف الخلق أجمعين على مر العصور، وتوالى الدهور..!!

وعلى ذلك فما كتبه «نجيب محفوظ» فى تلك الحلقات المسلسلة هو خروج على الدين، وإساءة للرسل، فضلا عما تضمنه من ذكر للذات الإلهية بما لايصح ولا يحق لبشر أن يقوله..!

وكان ما تقرر - على أثر انتشار هذه المقولات - من أن يكتفى المؤلف بنشر روايته مسلسلة وألا تطبع فى كتاب فى مصر، بحيث لا يتاح لمن لم يقرأها - أو لم يتابعها - أن يطالعها أو يقرأها فى كتاب مكتمل. وإلا فكيف يباح للعامة أن يقرأوا كتابا يقوم على الخروج على الدين، وينطوى على إساءات بالغة وعدوان آثم - ما كان يصح أن يقع من كاتب، وما كان يجوز لصحيفة أن تنشره!

الخطير فى الأمر أن ذلك أصبح هو الحكم النهائى بالنسبة لهذا العمل - وقضى عليه بألا ينشر فى كتاب نزولا على هذا الحكم الذى صدر فى غيبة من صاحب الشأن، ودون الاستماع إليه، أو سؤاله لمعرفة وجه الحق فى هذا القضاء.. بل لقد أكَّد البعض أن مصدرى هذا الحكم لم يقرأوا هذا العمل القراءة الواعية.. أو هم على الأقل لم يستوعبوه على حقيقته، ولم يحيطوا بمقاصده وأهدافه الصحيحة... ومن ثم جاء حكمهم قاصرا، ورأيهم خاطئا مخالفا لوجه الحق، وللفهم الصحيح.

ومع ذلك، فقد أصبح هذا الحكم هو النافذ، وأصبح من المتعذر أن تنشر تلك الرواية فى مصر، وإن كان ذلك لم يمنع «بيروت» من أن تبادر إلى طبع رواية «أولاد حارتنا»، وبالطبع تسربت منها نسخ إلى مصر وإلى غير مصر.. إلا أن «نجيب محفوظ» لم يكن ليوردها ضمن قائمة كتبه، ولم يكن يشير إليها عند تعداد مؤلفاته، بل إنه مضى يقول إنه لن يأذن بنشرها إلا إذا أذن «الأزهر» بذلك، على أساس أن الاعتراض الرسمى كان نتيجة لتقرير أصدره أحد الباحثين فى مجمع البحوث الإسلامية غير أن الأمر كان يمضى هادئا، وكان الحديث عن «أولاد حارتنا» لا يتكرر كثيرا.. بل ولم يكن ينشغل به سوى نفر كبير أو قليل من المفكرين والنقاد.. حتى كاد أن يندثر.

٢ - تجدد الهجوم على أولاد حارتنا:

غـير أن الأمر تجدّد مرة أخرى بل اشـتعل على أثر فوز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل العالمية وما ورد فى تقرير اللجنة من أنه كان من بين الأعمال التى رشحته للجائزة: رواية «أولاد حارتنـا» مع أعمال أخرى، منها الثلاثية وسـواها، إلا أن ذلك نبّه نفرا من الناس لمعاودة الحديث عن الرواية وتناولها على نحو أشدّ ضراوة وأكثر عنفا - فقد جـدد الأزهر فتواه مرة أخرى، وأوصى بالاسـتمرار فى عدم نشـرها.. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى آراء تنشـرها العديد من الصحـف، وإلى فتاوى يصدرها العديد مُمن يصفون أنفسـهم بأنهم علماء الدين، ثم إلى خطب يجهر بها خطباء المسـاجد.. بل وقد ظهر أكثر من مؤلف خصّصه كاتبه للهجوم على تلك الرواية..

وقد انتهى هؤلاء إلى أننا بإزاء كتاب فيه خروج على الدين، ومساس بالذات الإلهية، وراحـوا يكررون نفس المقولات: عدم التزام بالسـير الصحيحة للأنبياء، ونسـبة أحداث وأقوال إليهم ليس لها أصل فى السـير الصحيحة فضلا عن المسـاس بالذات الإلهية بأن ينزلها منزلة البشر..

وزاد البعض على ذلك بأن أضافوا جديدا... إذ تساءلوا كيف يقول الكاتب أن الإله يمكن أن يموت، وأن العلم هو الذى لابد أن ينتصر ويحقق التقدم للبشـرية.. فهو كاتب علمانى خارج على الدين، غير ملتزم بأحكام الشريعة، ولا بصحيح العقيدة.

ومن هنا اختلفت أحكامهم:

فالبعض منهم أفتى بردّة المؤلف، وبالتالى أصدر حكمه بقتله.. فالمرتد جزاؤه القتل.. .....والبعض أفتى - ونصح - الكاتب بأن يتوب إلى ربه، ويسقط ذلك العمل من مؤلفاته، ثم عليه أن يستغفر الله من ذنبه، لعله - سبحانه - يتكرم بغفران ذنبه، وبقبول توبته..

وكان أن استجاب البعض لتلك الفتاوى والمقولات، فحاول أن ينزل على حكم «شيخه» وينفّذه فى شـخص المرتد، ويقضى على حياته، ولكن سـهم المعتدى لم يصب «نجيبا» فى مقتل، وإن ناله بأذى شديد، وأحدث به عجزا صاحبه حتى وفاته!

ولعـل أعجـب ما قيل كانـت «خطب» ذلك الشـيخ المفـوّه، الذى جعـل موضوعها «نجيب محفـوظ» وكتابـه. وكان الشـيخ ذا مقـدرة فائقة على الخطابـة - كما ذكرنا -

وله جمهور كبير يحتشد خلفه، ويستمع إلى خطبه.. ويتأثر بها، ويأخذها مأخذ القول الصحيح، والرأى الدينى المتفق مع حكم الشريعة. ثم زاد الشيخ فأصدر كتابا جمع فيه مقولاته السابقة، التى تشهد عليه بأقصى درجات التطرف والانحراف.

والأكثر إثارة من ذلك كله أن يأتى أستاذ من جامعة الأزهر فيصدر هو الآخر كتابا جعل همَّه الأول فيه أن يثبت أن «نجيب محفوظ» لم يقصد بكتابه إلا أن يورد صور الأنبياء محرَّفة، وأن يضمِّن كتابه عدوانا على الذات الإلهية، وأن ينتصر للعلم دون الدين.. وراح يبتدع الأدلة والاستدلالات والشهادات على ذلك ليثبت صحة مقولاته، ويؤكد سلامة استنتاجاته، ويقدِّم بدل الدليل الواحد أدلة عديدة ومتعددة.. وليخلص من ذلك كله إلى أننا بإزاء عمل خارج، وإن على صاحبه أن يعلن التبرؤ منه.. وبذلك يدخل التاريخ الشريف من أوسع أبوابه.

٣ - أحاديث «نجيب محفوظ»:

والعجيب أنه قد أجريت أحاديث عديدة مع «نجيب محفوظ» حول «أولاد حارتنا» وقال فى عبارة صريحة: إن حكم الإسلام أن من يرتد، لابد أن يستتاب أولا، فإن أصر على كفره كان للإمام أن ينفذ فيه الحد.. هذا إذا كان مرتدا كافرا، وقد ثبت كفره وارتداده بما لايدع مجالا للشك..

ومن هنا كان عجيبا أن يدعى البعض أنه يحق قتل «نجيب محفوظ»، دون أن يكون قد ثبت كفره أو ارتداده، فضلا عن ضرورة أن يستتاب، فالرجل مسلم صادق الإيمان، وصاحب عقيدة سليمة، ولم يقل شيئا مما نسبه من يدعون العلم، ويعطون لأنفسهم الحق فى الفتيا، بل وإصدار الأحكام.

وأوضح «نجيب» فى أكثر من حديث أنه لم يكن بصدد كتاب تاريخى، ولا مؤلف دينى، بحيث يلتزم بصحة الوقائع، وبالالتزام بالنصوص، وإنما كان بصدد عمل أدبى، رواية يعرض فيها لمجموعة من الناس هم «أولاد حارتنا» يتحدث عنهم، ويصف ما وقع لهم من أحداث، وما تعرضوا له من خير وشر، وهو وإن كان قد قدم المصلحين الذين تغلبوا على الطغاه، وحققوا قدرا من العدالة، فقد قدمهم على أنهم بشر من البشر، وليسوا رسلا ولا أنبياء.. وإذا كان هناك من يرى فى هذه الشخصيات مشابه من شخصيات تاريخية أو دينية، فإن ذلك لايعدو أن يكون رمزا. دون أن يعنى المطابقة أو رواية التاريخ لأننا بصدد عمل فنى، وإبداع أدبى، ولسنا بصدد كتاب تاريخى، ولا مؤلف دينى، ومن ثم

وجب أن تكون قراءته قراءة لرواية، تقوم على أحداث وشخصيات، وتتفاعل الشخصيات مع الأحداث، ومع أهل الحارة، وإن كان من بينهم مصلحون فهم أولاد الحارة – أو أحد أحيائها – يعملون على أن يردوا إليهم حقوقهم فى الوقف – المملوك للجميع.

والمشكلة – كما يراها «نجيب محفوظ» – هى أن البعض يقرأون هذه الرواية بمفهوم يفترضونه سلفا، وعلى أساس تفسيرات قيلت من قبل، والكثير منهم لم يتعودوا قراءة الروايات أو الأعمال الفنية، ولذلك فإنهم يسلّمون بما يتردّد من تفسيرات خاطئة، ويجهدون أنفسهم فى ردّ شخصيات الرواية إلى شخصيات التاريخ، ثم يأخذون على المؤلف فى ضوء التفسيرات ما يأخذونه من خروج.

بينما أن هذا العمل لو قرىء على حقيقته، وبما يقوم عليه من أحداث، تتطور بتطور الأيام، وتختلف باختلاف الأشخاص، لكنها تتواءم مع اختلاف الأزمنة، وتتنوع مع تنوع الأفكار، ومع ما يسعى إليه المصلحون من تجديد، وإصلاح، وتحقيق للعدالة، فيهزمون حينا، وينتصرون أحيانا.. ولكن انتصاراتهم تتطور، ويتسع نطاقها فبعد أن كانت تشمل بعض الأحياء إذا بها تشمل جميع الأحياء.. وإذا بها تضع بذرة العلم، وتدعو إليه، وفى ذات الوقت يثبت أن العلم ما هو إلا أحد جناحى التقدم، إذ لابد من الاستناد إلى الدين.. فكلا العلم والدين هما عمادا التقدم والنجاح..

وخلاصة ما انتهى إليه «نجيب محفوظ» فى أحاديثه – وما أراد أن يؤكده لقرائه – أن «أولاد حارتنا» ينبغى أن تقرأ على حقيقتها، بعيدة عن التفسيرات السلفية، أو التوجهات الدينية. تقرأ.

كرواية فنيه، لها مقاصدها وأهدافها التى يحق لكل قارىء أن يستخلصها بنفسه وأن يسبغ عليها رؤياه الخاصة، ونظرته الذاتية..

٤ - وماذا قال النقاد الأدباء:

والواقع أن هناك شبه إجماع على أن رواية «أولاد حارتنا» من الإبداعات المتميزة «لنجيب محفوظ»، وإن كان البعض يرى أنها وإن انطوت على إبداع، فهى أقل شأنا مما سبقها.. ومما كتب «نجيب» بعدها. ولكن النقاد أجمعوا على نفى «تهمة» الخروج على الدين والمساس بالمقدسات، والتعدى على الذات التى لايصح التعدى عليها بحال من الأحوال أجمعوا على نفى ذلك عن الراوى والرواية..

وذهبوا إلى أن الراوى مسلم حسن الإسلام، متمسك بدينه، حريص على مرضاة ربه.. بل إن أحد الباحثين الدارسين ممن عرضنا لهم تحدث حديثا مطولا عن الإسلامية والروحية فى أدب «نجيب محفوظ» وهو بحث موثق له شواهده، كما أن له دلالاته.. وقد كان – والحق يقال – بحثا ممتعا، وعميقا، وجديدا فى بابه.. وقد أخذ من رواية «أولاد حارتنا» أكثر من شاهد ودليل على أننا بصدد رواية تتوافق مع المفاهيم الإسلامية تمام التوافق.

والرواية – هى عمل فنى.. ويجب أن تقرأ على أنها عمل فنى – إبداعى لمؤلف روائى، وتقوم على أحداث وأحاديث، وفيها صراع متصل بين الخير والشر كما هو دأب الحياة الدنيا: وفيها سعى من البعض لتحقيق العدالة، ولكن أحداثها بشرية، صادرة عن بشر من غمار الناس أو من خيارهم، تنطوى صدورهم على ما تنطوى عليه صدور سائر البشر من حب الخير أحيانا ونزعة للشر فى أحيان أخرى، وسعى إلى الإصلاح فى مرات، وعمل على التعدِّى والغبن والتسلط فى مرات أخرى، ومن هنا كان الصراع على مدار حلقات الرواية، ولكنه صراع هادف يهدف إلى تحقيق العدل والحق والمساواة..

وأما عن اقتراب شخصيات وأحداث الرواية من أحداث التاريخ، وسير الأنبياء، فلم يكن قصد الراوى أو هدفه من ذلك هو رواية تلك السير أو الحديث عن أولئك الأشخاص، فقد كان ذلك أبعد ما يكون عن تصوره أو تفكيره، وإلا ففيم كان هذا الحرص على بشرية المصلحين – وهم الذين ذكر الدينيون أنهم يرمزون إلى أشخاص الأنبياء ويحكون سيرهم – فقد كانوا فى الرواية بشرا من البشر، وناسا من الناس، يجرى عليهم الصواب والخطأ، ولا يرتفعون عن المستوى العادى لأولاد الحارة إلا بمقدار ما تمتلىء صدورهم بالرغبة فى الإصلاح، وتسمو أفكارهم إلى المثل العليا، وينذرون أنفسهم لبذل الجهد، والتضحية بالنفس والنفيس، ولكنهم لا يدَّعون اتصالا بالذات الإلهية، ولا يدْعون إلى رسالة قد بعثوا بها.. وحتى صلتهم «بالجبلاوى» فكانت صلة بصاحب الوقف وصاحب الوصايا العشر ليس لها ظل إلهى، وليست صادرة عن مصدر سماوى – إنها حياة عادية متطورة، متفاعلة، مضطربة أو مستقيمة، مجتمعة أو متفرقة، قد تبلغ منتهى السوء والقسوة والظلم، ثم تنفرج عن خير، وتحقق قدرا من العدالة والمساواة، و«الجبلاوى» شخص أرضى لا يعبِّر عن السماء، ولا هو صاحب الكون.. إنه صاحب الوقف والمتصرف فيه، والمسيطر عليه، قد يرخى قبضته حينا، ولكنه يعود إلى العمل على استرداد الأمر، وفرض السيطرة عن طريق

من يوجِّه من قبله، ومن يختاره لهذه المهمة.. كلهم أفراد من البشـر، ليسوا رسلا من قبل الإله، وليسوا أصحاب رسالات سماوية..

• ولكن فيم محاولة التمثيل بأصحاب الرسالات؟

• وفيم حشد العديد من الرموز التى تتيح للمؤولين الفرصة لكى يؤوِّلوها حسب هواهم؟

• وفيم الاقتراب فى سير هؤلاء من سير الأنبياء الثلاثة؟

• وفيم هذه الأوجه العديدة من التشابه والمشابهة؟

ذلك أسـلوب اختاره المؤلف، وليس لأحد أن يفرض عليه أسـلوبا لا يعدوه، أو يطلب منـه أن يروى أحداثا دون أحداث، أو يعرض لأشـخاص دون آخريـن. فحريته مطلقة، واختياراته لا يحكمها، ولا يتحكم فيها إلا ما يقيم عليه إبداعاته من أسـس، وما يختاره لفنه من منهاج.

ولكن ليس للقارىء أن يفسِّـر الرواية بتفسـيرات لا تدلّ عليها، ولا يسـند إليها أنها إنما تعنى بهذه الشـخصية فلانا، أو سـواه طالما أن هناك مغايرة بين الشـخصيتين فى أكثر من ناحية، وجعل تصرفاتها شـخصياته نابعة من ذواتها، ومتفقة مع طبائعها، وهى فى عمومها تصرفات بشـر نابعة من بشـريتهم، تتطور مع تطوُّر الرواية وتساعد فى تنامى أحداثها، دون أن تقف عند حد محدود..

هى إذن شخصيات بشرية، قد يسموا البعض فى مثله، ويرتفع بأفكاره، ولكنه لا يعبر عن شخصية دينية، ولا يحدِّث عن حدث له فى التاريخ صداه، الأمر الذى يبرىء الرواية مما أضيف إليها، وأدخل عليها من تفسـيرات وتأويلات دينية.. وذلك لأن مسـايرة هذه التفسيرات تؤدى بالقارىء إلى ضلال، وبالرواية إلى غير حقيقتها، وبما لم يُرده كاتبها لها، وينحرف بها إلى ما لم يقصده مؤلفها من إبداعه لها..

لم يكـن «نجيب محفوظ» فـى «أولاد حارتنا» كاتبا لقصة تاريخية، وإلا لكان منهاجه غـير المنهـاج، ولا هو كان يكتـب قصة دينيـة، وإلا لراعى الحقائق الدينيـة، والوقائع التاريخية، والتزم بما حكاه القرآن رواية عن الرسل أجمعين.. ذلك أن «نجيبا» لم يختر أيا من السـبيلين وإنما اختار الأسلوب الروائى المعتاد، وإن قارب بين بعض أحداثه وأحداث دينية معروفة ولكن مقاربته لم تكن تطابقا ولا مشـابهة كاملة، إنما هى تكتفى بالرمز، أو بالإشارة، أو بالاستلهام، لكن سائر الحوادث هى من تأليفه وإبداعه وكذلك الشخصيات،

فهى شـخصيات بشرية كاملة البشـرية، تتصرف تصرف البشر، وتتحدث بلغة «الحارة» وأسـلوب العصر، ولا تدعى وحيا، ولا تنسب القول إلى سواها.. ولذلك يستحيل على ذى فهم أن يساير «الدينيين» فى تفسيراتهم، إنه إن فعل يكون هى المخطىء والمستحق للوم.. ولا ذنب على المبدع..

ومع ذلك فإذا ذهبت فى تفسـير مضمـون الرواية إلى أنه دعوة لمقاومة الظلم، وأنه فهم لطبائع الطغاة على حقيقتها، وأن المظلوم إذا لم يطالب بحقه ضاع عليه، وأن الإنسان تعلو قيمتـه ومكانتـه بعلو همته، وأن الإيمان لابد وأن يقـترن بالعلم فكلاهما هام لتحقق التقدم والوصـول إلى النجـاح.. إذا قلت هذا أو ماهو من قبيله فأنـت لم تخرج عن الرواية وأنت تتحدث عنها وفى إطارها، تستوحى أحداثها وأحاديثها؛ تمضى مع مؤلفها فى استنباط ما رما إلى تحقيقه – من ورائها – من أهداف، والتعبير عنه من غايات.. وأنت بذلك برئت من الشطط، وبعدت عن الانحراف..

٥- وبعد.. فما هو القول الفصل؟

عقب وفاة «نجيب محفوظ» أذن لرواية «نجيب محفوظ» أن تظهر إلى عالم النور، وأن يتـم طبعها فى مصر، لتجد رواجا شـديدا، وتعاد طباعـة الرواية مرة بعد الأخرى؛ وكان نشـرها مقترنا – كما ذكرنا – بشـهادتين لعالمين إسلاميين: شهد أولهما بأنها ليس فيها تعدّ على الدين، أو مسـاس بالذات الإلهية، أو إسـاءة إلى التواريخ المقدسة، بل هى عمل روائـى يُقرأ كما تقرأ كل الروايات ذات المسـتوى الرفيـع.. أما العالم الثانى فكان قوله أن الرمز يحتمل التأويل وما كان محتملا التأويل وجب حمله على أحسن وجوهه..

فهل كان ذلك بمثابة القضاء ببراءة الرواية وسلامة موقف الراوى؟

لا نقـول ذلـك، ولا نذهب إليه.. بل إننا نقول إن ما قيل حول الرواية فى البداية كان مرجعه هم قائلوه، وهم الذين فسّـروا، وقالوا، وادعوا، ثم صدقوا أنفسهم ونشروا أقوالهم، وأذاعوا أحكامهم..

وإذ أسـفر الفهم الصحيح للرواية عن أن شـيئا مما قاله أولئك المفسرون الذين أخطأهم التوفيق فى تفسـيراتهم لا يطابق الواقع، ولا يتفق مع التقييم العميق.. فإن لنا أن نخلص إلى أنه متى استبانت الأمور على حقيقتها، وجرت قراءة الرواية دون إضافات من القارئ،

ودون خـــروج بها إلى عوالم غير عالمها، ومنحها صفات ليســت لها – تكشــفت الحقائق واضحة بأننا إزاء عمل روائى لا يمثل خروجا ولا ينطوى على عدوان أو مساس، وأن لك أن تعجب به وترضى عنه، كما أن لك ألا ترضى عنه، وتخسف به الأرض.. أنت ونظرتك، وذوقك.. ولكن ليس لك أن تخرج به عن كونه عملا فنيا إبداعيا، وأنه ليس كتاب تاريخ، أو عقيدة، أو دين.. ومن ثم يجوز عليه ما يجوز على كل الآثار الأدبية من النقد، والتقييم، والتحليل، وصولا إلى وضعه فى مكانه الصحيح من الإنتاج الأدبى بصفة عامة، ومن إنتاج «نجيب محفوظ» بصفة خاصة.

والله ولى التوفيق

دكتور/ أحمد السيد عوضين

القاهرة ٢٠١١/١/٢٨م

* * *

.....